واقع التسامح الإسلامي بين المروي والنص الديني

أسماء الشامسية

يستهل حمدي زقزوق مقاله «التسامح في الاسلام» بتوجيهات الإسلام حول ضرورة ممارسة الحرية في إطار العمل المسؤول الذي يفترض وعي صاحبه بضرورة إتاحة الفرصة للآخرين لممارسة حريّتهم أيضًا ما يعني تنازل كل البشر عن جزء من حريتهم في سبيل إقامة مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع. يعرج الكاتب في بقية المقال لتوصيف فكرته عن التسامح في بند التسامح الإيجابي الشامل إذ ينتصر لتوجيهات النص القرآني في التسامح الشامل مع جميع البشر بصرف النظر عن انتماءاتهم العرقية والدينية والأيديولوجية كل ذلك مشروطًا بالعدل مع مَن لم ينهَ الله التسامح معهم من الذين لم يعتدُوا على المسلمين ووجوب التعايش الإيجابي معهم بالبر والقسط .

وفي بند التسامح والتعددية يؤكد على الاختلاف الذي يمهد للتعارف والتآلف لا الشقاق والخلاف وعلى ضرورة تقبّل رأي المخالف وعدم تشتيت العلاقات والود بين الأفراد لمجرد الخلاف، وفي بند التسامح والحوار يشيد الكاتب بالحوار الذي يحترم كل طرف فيه الطرف الآخر والذي يهدف إلى إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح منتقدًا الدول التي تُفضل شريعة الغاب على الحوار من أجل فض النزاعات وداعيًا المجتمع الدولي إلى تصحيح الأوضاع حتى تنصاع هذه الدول الخارجة عن القيم الحضارية للأسلوب الحضاري ثم مستدلاً بآيات قرآنية تحض على الحوار بين الأديان برغم كل الاختلافات بين الأمم والشعوب باعتبار الإسلام الدين الأول الذي يحض عليه مؤكدًا على المنهج الذي وضعه الإسلام في تأسيس مبدأ الحوار باستدلاله بالآية التي تنهى عن مجادلة أهل الكتاب. وفي إطار التسامح الديني يستمر في دعوته لنبذ التعصب لدينٍ وآخر، وأن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يسود دون تسامح المتحاورين مشددًا على أن المسلمين لم يُكرهوا أحدًا على الدخول في دينهم ولطالما كانت التعددية من العلامات المميزة في التعاليم الإسلامية وفق آية "لا إكراه في الدين" ومثال ذلك تأسيس مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية الدينية والثقافية التي مارسها المسلمون عمليًا على مدى تاريخهم الطويل فيما بعد.

يمكننا التعرّض لأفكار المقال من عدّة جهات من مثل: منهجية المقال و الأدلة المُبرهَن عليها والنتيجة التي توصل إليها الكاتب من خلال أفكار المقال الأساسية.

إذ تتسم منهجية المقال بالتقريرية والخطابيّة المُباشرة في عرض فكرة التسامح الديني في الإسلام ومن حيث الذاتي والموضوعي في سرد الأفكار فالكاتب اعتمد الذّاتي كبعد منهجي شكلي واستبعد الموضوعي، وبالنظر للأدلة النّصية التي أوردها يمكن اعتبار المقال كاملاً من هذه الناحية ولكن من جهة البُعد المنهجي الذاتي فقط ، يظهر ذلك في اعتماده على مصدرين نصيّين : القرآن الكريم والسنة النبوية، ومصدر وحيد للشيخ محمد عبده تقوم عليه فكرة المقال إجمالاً، فضلا عن أدلة الأحداث التاريخية منذ عصر النّبوة وحتى عصر الخلافة للتدليل على ترسيخ الإسلام لمبدأ التسامح دون التّطرق للأحداث اللاحقة منذ تأسيس العصر الأموي مرورًا بالعصور التي عانَى فيها النّص القرآني من التفسيرات المُستغَلة لصالح إرساء سلطة سياسية أو اجتماعية ودون فصل النّص الديني عن الممارسة الدينية والرواية التاريخية، بل على العكس أكّد الكاتب على ممارسة المسلمين للتسامح على مدى تاريخ المسلمين الطويل وهو ما لم يُحدّده لا زمنيًا ولا مكانيًا وتنقضه الروايات التاريخية المتضاربة وفقًا للمصادر المختلفة ما يُضفي على المقال صفة الاحتفائية، نظريًا أورد النّص القرآني عشرات الآيات الحاضّة على التسامح أوردها الكاتب في كل بُنود المقال هذا من الناحية النّصانية وطالما أهملَ الكاتب واقعيّة التسامح الإسلامي ما بعد عصر الخلافة فسنتوقف عند ما توقّف عنده الكاتب، إن القول بالتعددية التي سمح بها النص القرآني في آيات : "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك"، "وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا" ، "لا إكراه في الدين" وفق تسامح إسلامي شامل هي نظرة واحدية يمكن مواجهتها بالنّص القرآني النقيض في آية "إنّ الدين عند الله الإسلام "، "ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه"، ووفقًا للباحث مالك مسلّماني الذي يرى في ظرفية نزول آية عدم الإكراه "أنها نزلت والإسلام في حالة ضعف ولم يكن له في مكة إلا القليل من الأتباع فتطلب آنذاك أن يكون أسلوب الدعوة سلميًا إلا أنّه وبعد هجرة المسلمين إلى يثرب ولحاق النبي محمّد بهم نزلت أولى آيات القتال بعد أن نهى النص القرآني قبلها عن القتال في أكثر من سبعين آية" إذ نُسخت آيات التسامح بما يُسمّى بالقاعدة الفقهية "الناسخ والمنسوخ" لتحلّ محلها آيات الجهاد والقتال ولئن نزل القرآن في ظروف اجتماعية قاسية فقد تعاطى مع أهل الحجاز بطبعهم الصحراوي الذي يألف الحرب والقتال ، وفي إطار التسامح الديني تطرق الكاتب إلى أنّ التعايش والتسامح مع الآخرين من الذين لم يُقاتلوهم مشروطا بالبر والقسط معهم وفقًا للآية : "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إنّ الله يحب المقسطين" إلا أنّه أغفل إلى جانب العدل معهم ما أوجبَه النص القرآني عليهم من دفع الجزية صاغرين في الآية القرآنية: " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يُدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" وبخلاف ما يُشير إليه أدونيس "من أنّ هذا الوجه من التسامح نوعًا من إبقاء الفروقات بين الأقلية والأكثرية فهو يخلق كونية زائفة من حيث أنه يحافظ على التفاوت بين البشر وعلى التراتبية بينما الحاجة الإنسانية هي العمل لتحقيق المساواة" ورأي أدونيس هذا الذي يرى في التسامح تخطئة لاواعية ومفهومًا "إحسانيًا» لا «إنسانيًا» لجماعة ما تعتقد أنها مصيبة لأنها تمتلك الرسالة الحق تُحسن لجماعة أخرى مخطئة تحت مفهوم التسامح يختلف معه كثيرون ويقف وحيدًا وسط كل الدعوات التي تدعو للتسامح مثل فولتير في رسالته الشهيرة «رسالة في التسامح». إلا أنّ ما يُعاب على الكُتّاب الإصلاحيين هي أسلوب عرض دعواتهم من الناحية اللغوية التي لا تترك مفرًا من اعتبار هذه الدعوات إلى التسامح تفضّلاً على الآخر وليس حقًا طبيعيا ففي "فصل جيش عمرو" يصف الغزالي دخول جيش عمرو بن العاص إلى مصر بالأمر المُقرر أي قرّره الخليفة عمر بن الخطّاب بداعي تحرير الأمّة المصرية من غبش وظلم الرومان المسيحيين ثم تراه بصريح القول يؤكد : " تختلف نشأة الإسلام اختلافًا كبيرا عن نشأة النصرانية فالإسلام تحوّل على عجل إلى دولة تهيمن على جزيرة العرب" ومع ما في ذلك من تأسيس للإسلام السياسي في اصطلاح "الدولة" إلا أن زقزوق تجاهل صيغة دولة الإسلام السياسي القائمة على القتال والجهاد منذ زمن الخلافة وحتى تأسيس معاوية بن أبي سفيان للمُلك إلى ما بعده منَددا بالدّول المعاصرة التي لا تؤسس حضارتها على الحوار والتسامح.إلا أن أفضل ما ختم به زقزوق المقال هو مطالبته بمبدأ "الحوار"بين الأفراد وبين الأديان لكونه السبيل الوحيد لفرض مجتمع متمدن وديمقراطي ومتحضّر، وهي الدعوة الصريحة التي تتفق مع رؤية داريوش شايغان أول من أسس لاصطلاح " الحوار بين الحضارات ".

ختامًا يُمكن القول بأن معالجة موضوع كالتسامح بالاستناد إلى النصوص التاريخية المقدّسة والموضوعة يَصعب ألا يكون ذاتيًا متحيّزًا، وبرغم إمكانية ذلك كان يمكن لزقزوق أن يعالج الموضوع برد الآيات إلى سياقاتها التاريخية والزمنيّة دون الاستشهاد المجتزئ بالآيات الذي يجعل أي قارئ ناقد يكتشف مواضع التناقض ويحيّر القارئ العادي الذي سيقرأ في آية حشر غير المسلمين من أهل الكتاب في النار وفي آية أخرى يقرأ دُخولهم الجنّة، إن موضوعًا كهذا أثار جدلاً واسعًا ولا يمكن الرُّسوّ على وجهة نظر حيادية ، إلا باستعراض أوجه الاختلاف والازدواج في الآيات التي تجعل النص القرآني متّهمًا ومعالجتها ربطًا وتحليلاً، وفي حين اعتمد زقزوق على التقريرية المباشرة غير الناقدة لموضوع التسامح الديني واقعيًا وتاريخيًا عدا من مصادر واحدة يؤيد بعضها بعضا ومنها ما هو محذوف وغير مكتمل ودون أن يدفع عن الإسلام تُهمَ وقوعه في ملابسات أحداث ونصوص غير متسامحة فهذا المقال سيظل مُتاحًا للنقد والمراجعة والتحليل باعتبَار الأحداث الراهنة في التّعصب الديني والعنف والنزاع الطائفي تتموضع على النصوص الدينية القديمة والأحداث التاريخية المضطربة والمُؤسَّسَة على النص الديني.

asmaashamsi@hotmail.com